

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٤]

القرءات: «قتلوا» قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب بضم القاف وحذف الألف وكسر التاء وقرأ الباكون «قاتلوا» بفتح القاف وألف بعدها وفتح التاء.

التوجيه: قال الرازي: وأما من قرأ «قاتلوا» فهو أكثر فائدة وأعم تناولاً لأنه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل. وأما من قرأ «والذين قُتِلُوا» على البناء للمفعول فنقول هي مناسبة لما تقدم من وجوه. أحدها: هو أنه تعالى لما قال «فَضْرَبَ الرِّقَابِ» أي اقتلوا والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يقتل المتقدم يمنعه من الإقدام فقال لا تخافوا القتل فإن من يقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه.

وثانيها- هو أنه تعالى لما قال ﴿لَيُبْلَوَنَّكُمْ بِبَعْضٍ﴾ والمبتلى بالقتل به وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء وهذا كمال فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع، فحال المبتلين ماذا؟ فقال إن قُتِلَ فله أن لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة وأما إن قُتِلَ فلا يخفى حسن حاله عاجلاً وآجلاً وترك بيانه على تقدير كونه قاتلاً لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولاً وثالثها- هو أنه تعالى لما قال ﴿لَيُبْلَوَنَّكُمْ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٤٨] ولا يُبْتَلَى الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه فإن السيف المهند الكبير القيمة لا يجرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه من الانكسار ولكن الأدمي مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر فكيف يحسن هذا الابتلاء؟ فنقول القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يُقتل مكرم وعلى

تقدير أن لا يُقتل مكرم هذا إن قَاتَلَ وإن لم يقاتل فالموت لأبد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير.

وقال ابن جرير: وأولى القراءات بالصواب قراءة من قرأه «والذين قاتلوا» لاتفاق الحجة من القراء عليها، وإن كان لجميعها وجوه مفهومة.

قلت: هما قراءتان متواترتان متفقٌ على صحتها، ولكل قراءة وجهها ودلالتهما، قال ابن عاشور: وقرأ الجمهور «قاتلوا» بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم. وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم «قتلوا» بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.

قَالَ تَجَالَى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [مُحَمَّدٌ: ١٥]

القراءات: «آسن» قرأ ابن كثير بغير مدٍّ بعد الهمزة وقرأ الباقر بالمد.

المعنى: قال الرازي: يقال: آسن الماء يأسن على وزن آمن يأمن فهو آسن، وأسن اللبن إذا بقي زماناً فتغير طعمه.

التوجيه: قال ابن عاشور: قرئ آسن على أنه وصف من آسن الماء من باب ضرب ونصر وفرح، إذا تغير لون الماء، وقرئ «أسن» بدون ألف بعد الهمزة على وزن فَعَلَ للمبالغة وقال القرطبي: قرئ «آسن» بالمد، و«أسن» بالقصر، وهما لغتان مثل حاذر وحذر، وقال الأخفش: آسن للحال، وآسن «مثل فاعل» يراد به الاستقبال.

قلت: أي لا هو متغير الآن ولا هو متغيرٌ في المستقبل بل يبقى على صفائه وعذوبته أبداً.

قَالَ تَجَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [مُحَمَّدًا: ١٦]

القراءات: «آنفا» قرأ البزي بخلف عنه بقصر الهمزة والباقون بمدّها وهو الوجه الثاني للبزي.

التوجيه: قال ابن عاشور: واتفق القراء على قراءته بصيغة فاعل وشذت رواية عن البزي عن ابن كثير أنه قرأ «آنفا» بوزن كَتَفَ. وقد أنكر بعض علماء القراءات نسبتها إلى ابن كثير ولكن الشاطبي أثبتّها في حرز الأمانى وقد ذكرها أبو علي في الحجة.

فإذا صحت هذه الرواية عن البزي عنه كان «آنفا» حالاً من ضمير «من يستمع» أُجْرِيَ على الأفراد مراعاةً للفظ «من». ومعناه: أنه يقول ذلك في حال أنه شديد الأنفة، أي التكبر؛ إظهاراً لترفعه عن وعي ما يقوله النبي ﷺ وينتهي الكلام عند ماذا. وزعم أبو علي في الحجة: أن البزي توهمه مثل: حاذر وحذر، ولا يظن مثل هذا بالبزي لو صحت الرواية عنه عن ابن كثير.

قلت: ليست الرواية عن البزي بشاذة بل هي متواترة.

قَالَ تَجَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّدًا: ٢٢]

القراءات: «عسيتم»: قرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها.

«تقطعوا»: قرأ يعقوب بفتح التاء وسكون القاف وفتح الطاء مخففة، قرأ الباقر بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة.

التوجيه: قال ابن عاشور: وقرأ نافع وحده «عسيتم» بكسر السين. وقرأه بقية العشرة بفتح السين وهما لغتان في فعل عسى إذا اتصل به ضمير. قال أبو علي الفارسي:

وجه الكسر أن فعل عَسِيَ مثل رَضِيَ. ولم ينطقوا به بالكسر إلا إذا أسند هذا الفعل إلى ضمير، وإسناده إلى الضمير لغة أهل الحجاز، أما بنو تميم فلا يسندونه إلى الضمير ألبتة، يقولون: عسى أن تفعلوا.

وقال ابن جرير: والصواب عندنا قراءة ذلك بفتح السين لإجماع الحجة من القراءة عليها وأنه لم يسمع في الكلام: عَسِيَ أَخُوكَ يقوم بكسر السين وفتح الياء ولو كان صواباً كسرهما إذا اتصل بها مكني [كالضمير] لجاءت بالكسرة مع غير المكني وفي إجماعهم على فتحها مع الاسم الظاهر الدليل الواضح على أنها كذلك مع المكني، و«إن» التي تلي «عسيتم» مكسورة، وهي حرف جزاء، و«أن» التي مع «تفسدوا» في موضع نصب بـ«عسيتم».

قَالَ تَجَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾

[مُحَمَّدًا: ٢٢]

القراءات: قرأ رويس «تَوَلَّيْتُمْ» وقرأ الباقون «تَوَلَّيْتُمْ».

المعنى والتوجيه: قال القرطبي: اختلف في معنى «توليتهم» بفتح التاء، فقيل: هو من الولاية، قال أبو العالية: المعنى: فهل عسيتم إن توليتهم الحكم فجعلتم حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشا (الرشوة)، وقال الكلبي: أي: فهل عسيتم إن توليتهم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم، وقال ابن جريج: المعنى فهل عسيتم إن توليتهم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام، وقال قتادة: أي فهل عسيتم إن توليتهم عن كتاب الله أي تفسدوا في الأرض بسفك الدماء وتقطعوا الأرحام، وقرئ بضم التاء «توليتهم»، والمعنى: إن وليتكم ولاية جائزة خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم.

قَالَ تَجَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٢٥]

القراءات: «أملئ»: قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء وقرأ يعقوب كذلك إلا أنه سكن الياء، وقرأ الباقر بفتح الهمزة واللام وألف بعدها.

التوجيه: قرئ «أملئ» بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء على البناء للمفعول، لتفيد تعدد من فعل ذلك، فالله أملئ لهم، والشيطان أملئ لهم، وأنفسهم الأُمارة بالسوء قد أملت لهم، وقرئ «أملئ» بفتح الهمزة لبيان أنَّ الشيطان سَوَّلَ لهم وأملئ لهم، ولا تعارض بين القراءتين، فما أملئ الشيطان لهم إلا بمشيئة الله وإرادته الكونية، وما ضلُّوا إلا باتباع أنفسهم الأُمارة بالسوء لإملاء الشيطان، فهي التي استجابت لتسويل الشيطان وإملاءه.

وقال ابن جرير: وأولى القراءات بالصواب في هذه الآية، القراءة التي عليها عامة قرَّاء الحجاز والكوفة من فتح الألف في ذلك، لأنها القراءة المستفيضة في قرأة الأمصار، وإن كان يجمعها مذهب تتقارب معانيها فيه.

قلت: بل هاتان القراءتان متواترتان متكاملتان تبينان معاً حقيقة الإغواء، وهي أنَّ الرب يكل العبد إلى نفسه ويخلق في قلبه الغواية ولا يعصمه فيتسلط عليه الشيطان بالإملاء والإغواء، فلا يزال يلح على نفسه بذلك حتى تستجيب لإغوائه وإملائه، وما ربك بظلامٍ للعبيد.

فائدة: القراءة الثالثة: قراءة يعقوب «أملئ» على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم - والمعنى: وأملئ أنا لهم - تدل على أنَّ المراد من قوله «وأملئ» على قراءة الجمهور: أنَّ الله أملئ لهم وكذا على قراءة «أملئ» بفتح الياء، أو يقال: لما كان الله هو الذي خلق في قلوبهم الغواية وكان الشيطان لا يتسلط عليهم إلا بمشيئة الله صحَّح أن ينسب ذلك إلى الله وحده مع أنَّ الشيطان أملئ لهم كذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [مُحَمَّدًا: ٢٦].

القراءات: «إسراهم» قرأ حفص وحمة والكسائي وخلف العاشر بكسر الهمزة وقرأ الباقون بفتح الهمزة.

التوجيه: قال الشنقيطي: قرئ «أسراهم» بفتح الهمزة جمع سر، وقرئ بكسر الهمزة «إسراهم» مصدر أسر، كقوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نُوح: ٩]، وقد قالوا لهم ذلك سرًّا فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

تنبيه: قرأ شعبة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [مُحَمَّدًا: ٢٨]؛ قرأ «رضوانه» بضم الراء وقرأ الباقون بكسرها، وقد قدمنا أنها لغتان في هذه الكلمة، وتزيد هاهنا أن قراءة الكسر مع قراءة الضم يدلان على أنهم كرهوا أي رضوان: من الله سواء قل كما تدل عليه قراءة الكسر لحفة حركة الكسر، أو عَظُم كما تدل عليه قراءة الضم لثقل حركة الضم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالنَّصِيرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾

[مُحَمَّدًا: ٣١]

القراءات: «ولنبلونكم، نعلم، نبلاوا» قرأ شعبة بالياء في الأفعال الثلاثة وقرأ الباقون بالنون فيهن وقرأ: رويس بإسكان واو «ونبلوا» تخفيفاً والباقون بفتحها.

التوجيه: قال ابن عاشور: وقرأ الجمهور «ولنبلونكم حتى نعلم» «ونبلوا» بالنون في الأفعال الثلاثة، وقرأ أبو بكر عن عاصم تلك الأفعال الثلاثة بياء الغيبة والضمائر عائدة إلى اسم الجلالة في قوله «والله يعلم أعمالكم». وقرأ الجمهور «ونبلوا» بفتح الواو عطفاً على «نعلم». وقرأه رويس عن يعقوب بسكون الواو عطفاً على «ولنبلونكم». وقال

د/محمد سالم محيسن: قراءة رويس بإسكان الواو في «نبلوا» تخفيفاً، وقراءة الباقون بالفتح على الأصل.

قال ابن جرير: وأولى هذه القراءة عندنا، قراءة عامة قراء الأمصار بالنون «النبلوكم»، «نعلم»، و«نبلو» على وجه الخبر من الله جلّ جلاله عن نفسه، لإجماع الحجة من القراء عليها، وإن كان للأخرى وجهٌ صحيح.

قلت: هي قراءات متواترة ولا يصح ردّ إحداها، وقراءة الياء تفيد تعيين الفاعل وتفيد كذلك إثبات ضرورة وقوع ذلك ولو بأقل درجة، وقراءة النون (نون العظمة) تفيد عظيم علم الله وقدرته. كما تفيد أنه ربما وقع ونزل بالمؤمنين بلاء عظيم زيادةً في ابتلائهم ورفعاً لدرجاتهم، والله أعلم.

قَالَ تَجَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٣٥]

القراءات: «السلم» قرأ شعبة وحمزة وخلف العاشر بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها.

التوجيه: قال ابن عاشور: قرئ بكسر السين وافتحها وهما لغتان.

قلت: والمراد بالسلم هنا المسالمة والمصالحة.

